# الوحيد

## في سلوك أهل التوحيد

العلامة الحافظ المجاهد الإمام
عبد الغفار بن أحمد المشهور بابن نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

# الجزء الأول من الوحيد

الحمد لله الذي أوضح الطريق لسلوك عباده إليه، وفتح بابَ دعوتِه لدخول أوليائه عليه، واختصّهم لحضرته، فمِن مُجالسٍ ومُؤانسٍ وقائمٍ بين يديه، كلٌّ ذلك ضربًا للأمثال ليفهموا، ولا يصل الفهم ولا العقل إليه، تعرّف لهم، فبه عرفوه، وَوَصَف لهم ذاته العليَّة، فبالوصف الذي وصفها لهم به وصفوه، وطهّر قلوبهم من الأغيار فما أَنِسوا بغيره ولا أَلِفُوه، وخرق أسماعَ قلوبهم خطابُه فأسكرهم بلذيذ ذلك الخطاب، وتجلَّت لهم صفاتُ جماله فذهلت منهم العقولُ وطاشت منهم الألباب، وأسطلَهم الدَهَشُ فحاروا وعجزوا عن ردِّ الجواب، فلولا ثبّتهم في ذلك المقام وردّهم بعد الصحو والاصطلام فلاطفهم بلطائف ذلك الكلام لصار بناؤهم إلى الإنهدام، واندرست تلك الرسوم والأعلام، ولسارع على وجودهم الاضمحلال والانعدام.

**أحمده** وهو الحامد لنفسه على الكمال والتمام، وأشكره وبشكره يجب الشكر ويزيد الإنعام.

**وأشهد** أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مخلصةً مستمرةً على الدوام، وأشهد أن سيّدنا محمدًا عبدُه ورسوله المبعوث إلى سائر الأنام المفرّق ما بين الحلال والحرام والناسخ بشرعته جميع الشرائع والأحكام، صلّى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة وأفضل سلام.

**أمَّا بعد ...**

## سبب تأليف الكتاب

فإنَّه سألني وليٌّ كريم وصديق حميم بثغر الإسكندرية في العشر الأوائل من ربيع الأولى سنة ثمان وسبعمائةٍ للهجرة النبوية أنْ أجمع له مجموعةً تشتمل على حكاياتِ مَنْ صحبته، وأخبارَ مَنْ رأيته، وما أخبروني به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم من الأولياء والصالحين والفقراء والسالكين والعلماء والعارفين وأرباب الأحوال

والواجدين، وسالكي طريق الورع والنزاهة والعبّاد والمتوّجهين وأهل الاطلاع والمكاشَفِين، وما بلغني عن الأقطاب والأبدال والأوتاد والأميين في كل إقليم من البلاد والخليفة والإمام والمستخلف في كل مقام، وما أخبروا به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم، ومن تعدى هذه الأطوار وفات الليل والنهار، وما حقيقة التصريف والتعرّف والتعريف؟ ليكون إلى جناب الله مشوّقًا وللسالكين مطرقًا وللعارفين مثبّتًا ومحقّقًا.

وخشيت على اندراس هذا الطريق وغيره على أهل التحقيق، وألاّ يزعم الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا أن ذلك ما كان أو ما وقع في زمان، أو يعتقد أرباب العلوم الكائنة في الكتب أنّ ذلك كان شيئًا ومضى، أو كبرقٍ لاح وطار ومضى، فهو يحدّس بفكره ويقيس ويغيب عن النفيس برؤية الخسيس، فلا يعرف إلا ما يراه من ملبسه من جنسه، ويقيس بيومه على ما مضى من أمسه، ويضرب الأمثال على أنواع المحال، ويعرض عن الحق بما حلا له من الباطل ولا يرجع فيه إلى عاجل ولا آجل فتراه من سُوء الظن يحول ويترنَّم ويقول:

أَمَّـــا الْخِيَـــامُ فَإِنَّهَـــا كخِيَـــامِهِمْ وَأَرَى نِسَـــاءَ الْحَـــيِّ غَيْـــرَ نِسَـــائِهَا

هذا وإن كان صدق فيما قاله القائل فإنها كلمة حق أريد بها باطل.

## خرقة السادة الصوفية

هذا وإن كانت الخرقة الشريفة قد كثر من المتشبهة والكذبة عليها والجهالة من العباد، وسرى ذلك في كثير من البلاد، وقام لهم الشيطان إمامًا وتعلق في مراياهم أحلامًا فبعضهم يحض عليه ويتولاه، وبعضهم يدفعه عن تبعيته ولا يرضاه؛ لأنه قد أعرض عن الرّحمن ونسي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠].

وقد جعلوا حظهم في هذه الطريقة ألوان اللباس وألوان الطعام، وقنعوا من الأسرار الإلهية والمنازلات الربانية بالبقبقة والتشدق في الكلام، يتبعهم على ذلك الجُهّال من العوام وأرباب الشهوات وأكلة الحرام؛ لأن النفوس محبوسة عن شهواتها ولذاتها بسيوف

الشرائع الظاهرة بالتقوى، وممنوعة عن شرّها وحظوظها بما حدّه الله تعالى من الحدود، وترك الهوى بسيوف الخوف حتى يقود إلى التقوى، فإذا وجدتْ مساعدًا لها على خلاصها من حبسها وإطلاقها في الإباحة لملاذّها وأنسها خرقت سياج شرعها، وأفلتت من شباك زيغها، ولم تراع حق ربها، وزعمت أن هؤلاء هم أفضل الخلق أقوالاً وأعمالاً، وأنهم الأقرب إلى الله تعالى فغيّروا أعلام الطريق، واشتبه على العامة معرفة الزنديق من الصديق فعبّرت عن ذلك مطلقًا قلت فيه محققًا كما قيل عمّن تقدم:

وَتَغَيَّـرَتْ صِـفَةُ الْغُـوَيْرُ فَمَـاْ الْغُـوَيْرُ كَمَـا الْغُوَيْرُ وَ لا التُّقَـى ذَاْكَ التُّقَـى

## السلوك الصحيح

لكـن لـيس برؤيـة المسـتحيل يسـتحيل الواجـب، ولا بوجـود الباطـل يكـون الحـق ذاهبًا، فالشمس لا تتغير بما يسترها من السحاب، ولا يُذهب الأُسد عويلُ الذئاب، فإنّ الأولياء بحمد الله تعالى في زماننا هذا كثير، وأهل الطريق من كل نوع في السلوك إلى الله تعـالى جمـع كبـير لا يعلمهـم إلا الـذي خلقهـم: ﴿**أَلاَ يَعْلَـمُ مَـنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

لا تقف يا وليّ مع الأوهام، ولا بقول من قال بسوء الظن بالطائفة ذاك الكلام، فإن جعل الجميع في سوء الظن واحد، وسوء ظنه في الحقيقة عليه عائد؛ لأنه هو الشاهد لصورته في المرآة والمحبوس في سوره فلا يتعداه، فتراه يميل إلى هواه ويرفض ما سواه، ومن جهل شيئًا عاداه، ولست لذلك أهلاً ولا إلى ما حملني مستقلاً لأنّ الأمر عظيم والخطب جسيم وجناب الله تعالى منيع وشأنه عزيز وحرزه حريز.

كيف واختلاف الطريق بحسب السالكين، والمطلوب بحسب استعداد الطالبين؟ فهم وإن اختلفت طرائقهم فبحسب أنواعهم وأجناسهم، فاختلافهم بحسب نصيبهم من آثار الصفات، ونصيبهم بحسب قسمتهم من الميراث والمطلوب واحد، ولا تقبل الوحدة الناقص ولا الزائد، فكيف لي بإجابتك أيُّها السائل؟

مع حجاب الشواغل وتكدر الخواطر وظلمة الباطن والظاهر؟

فنسأل الله العظيم أن يعينني بعنايته ويخصّني بكرامته ويسعدني بولايته ويجعلني له حبيبًا حتى أكون له مجيبًا فلقد هيجت مني ساكنًا وأثرت عندي كامنًا.

هَيَّجْتَ يَاْ سَعْدُ مِنِّيْ الشَّوْقَ نَحْوَهُمُ وَزِدْتَ نَاْرَ الأسى فِيْ بَاْطِنِيْ عَجَبَا
فَلَوْ عَلَى الْجَفْنِ مِنِّيْ زُرْتُ رَبْعَهُمُ لَمْ أَقْضِ مِنْ حَقِّهِمْ بَعْضَ الَّذِى وَجَبَا
لكِنْ كَيْفَ لِمَقْصُوصِ الْجَنَاحِ بِالطَّيَرَانِ وَلِمَنْ عَمَى بَصَرُهُ بِرُؤْيَةِ الأَلْوَانِ
مُتَّبَعَا@

فقد ثار حزني وطار أمني وتخلى صديقي عني.

كفَى حُزْنًا أَلاّ صَدِيْقَ وَأَنَّنِي فَرِيْدٌ بِلاَ عَيْشٍ يَسُرُّ وَلا نُسُكِ
كَأَنِّيْ نَضَارٌ ظَنَّهُ الدَّهْرُ بُهْرُجَاً فَأَلْقَاهُ فِي نَارٍ لِيَخْلُصَ بِالسَّبْكِ
كَرِهْتُ حَيَاتِي وَاسْتَطَبْتُ مَنِيَّتِي إِذَا ضَحِكَتْ سِنِّيْ فَقَلْبِي دَمًا يَبْكِي

وإني وإن كنت على أشنع مما وصفت، ويعلم الله تعالى مني فوق ما علمت وعرفت لأنازع نفسي التوبةَ، وأسأل الله تعالى رفعَ الحوبة، وأجنح إلى المتاب، وأرجو منه حسنَ المآب وإرادف الزفرات على زمان فات، وإن لم أكن من ذلك القبيل ولا مستحقًّا لقالٍ فيه ولا قيل، تنازعني الأشواقُ وتغالبني الأتواقُ وأقول كما قيل:

سَقَى اللهُ رَبْعًا فِيهِ سَلْمَى مُحِلَّةٌ مِنَ الدِّيَمِ مَاْ يَهْمِي بِهِ وَيَبْسُمُ
وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْ سَاكِنِيهِ فَإِنَّهُ يَحِلُّ بِهِ شَخْصٌ عَلَيَّ كَرِيمُ

فقد أوضحت لك بعض ما عندي، وبيَّنت لك نحسي من سعدي، لأوضح لك بذلك أعذارًا وأقدم لك فيه إنذارًا فإن وقع الخطأ فهو مني، فاسئل الله تعالى لي الإقالة، وإن وقع الصواب فهو من فضل الله تعالى فاسئله لي الإنالة، وكيف لا يقع الخطأ والخطأ واقع؟

مَنْ ذَاْ الَّذِيْ مَاْ سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ

وقد استخرت الله تعالى واستعنته وتبت إليه واستغفرته واستعفيته من قلبٍ قاس وجفنٍ جامد وكمدٍ متزايد، فكيف لي بتحقيق الأطماع مع وجود هذه الأوجاع؟

تَقُولُ نِسَاءُ الحَيِّ تَطْمَعُ أَنْ تَرَي مَحَاسِنَ لَيْلَىْ مُتْ بِدَاءِ الْمَطَامِعِ

وَكَيْفَ تَرَىٰ لَيْلَىٰ بِعَيْنٍ تَرَى بِهَا سِوَاْهَاْ وَمَاْ طَهَّرْتَهَا بِالْمَدَاْمِعِ
وَتَلْتَذُّ مِنْهَا بِالْحَدِيثِ وَقَدْ جَرَى حَدِيْثُ سِوَاْهَاْ فِيْ خُرُوقِ الْمَسَامِعِ

لكن تتوب إلى الله تعالى من ذلك فإنَّ تأخير التوبة من الذنب ذنبٌ ثاني، وقد ورد: **«سيروا إلى الله تعالى عرجاً ومكاسير**[1]**»**، فلا عذر حينئذ في التأخير.

فَسِرْ زَمَناً وَانْهَضْ كَسِيْراً فَحَظُّكَ الْبَطَاْلَةُ مَاْ أَخَّرْتَ عَزْمًا لِصِحَةٍ

وقد ابتدأت بحول الله تعالى وقوّته بعد حمده واستعانته في ذكر ما اعتقده، وما كان عليه مَنْ صحبته وعرفته وسمعته، وعمّن سمعته منه وحكيته من صحة المعتقدات وحسن الاتباع وظهور الكرامات، وما كان عليه السلف والخلف آخذاً عن كتاب الله تعالى وتابعاً لسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإيماناً بالله وبما جاء به سيُّدنا محمد ﷺ من عند الله تعالى.

فنحن نشهد ألاّ إله إلا الله، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون.

ونشهد أنَّ الموت حقٌّ ومنكر ونكير حقٌّ، وكلُّ ما أتى به سيُّدنا محمد ﷺ حقٌّ والأنبياء حقٌّ، وأنَّ الصراط والميزان حقٌّ والجنة حقٌّ والنار حقٌّ وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور، وكلُّ ما ورد به القرآن من الحساب والعقاب والسيئات والثواب حقٌّ.

وأن الله تعالى خالق كلِّ شيء لا يشبهه شيءٌ ولا يشبه شيئًا ولا حلَّ في شيءٍ ولا كمثله شيءٌ ولا هو مثل شيءٍ، وأنه على كلِّ شيءٍ قدير وهو السميع البصير، نموت ونحيا على ذلك، وهذا كان معتقدهم لا يتكلمون في غير ذلك.

## التوبة

ولنذكر فصلاً مقدماً في التوبة إذ هي أوَّل السلوك إلى الله تعالى، قال الله تعالى **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [النور: ٣١].

وأثنى على التائبين في غير ما موضعٍ من القرآن العزيز فقال: **﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ**

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٢٢).

**الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾** [التوبة: ١١٢].

وذمَّ مَنْ ترك التوبة فقال: **﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الحجرات:١١].

وورد في الحديث: **«الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، والحجُّ يجبُّ ما قبله**[1]**»**، فليبدأ بالتوبة تطهيراً من الذنوب وتشريفاً للألسنة والقلوب، وتنزيهاً عن الشوائب والعيوب، وتقديماً لذكر المحبِّ والمحبوب؛ إذ التوبة أوَّل كلِّ مقام وآخرُ كلِّ مقام وشاملةٌ لكل مقام ومشاركةٌ في كلِّ مقام على الاستمرار والدوام.

يستوي فيها السائر والواقف والآمن والخائف والسالك والعارف، في نفس التوبة لا في مراتب التوبة؛ إذ توبة كلِّ واحدٍ بحسب حاله، فإنَّ حسنات قومٍ سيئاتُ قومٍ آخرين.

وقد تكون التوبةُ عن التوبة توبةً، وقد يؤاخذ بعضهم باللفتة والخطرة بحسب علوّ مقامه، ويأتي غيره بالعظائم فلا يؤثِّر فيه.

إِذَاْ مَـاْ سُمِّـيَ الأَوَّابُ حـالٌ وَهِمَّـةٌ ... إِلَىْ الَمَـلأ الأَعْلَـىْ وَأَثْبَتَـهُ الـنَّصُّ

هُنَـاْكَ يَخَـافُ الْغَيْـرُ طَمْسَـاً لأَنَّـهُ ... صَـغِيْرٌ بِـهِ مَحْـوٌ وَهَفْوَتُـهُ نَقْـصٌ

ومن ذلك استغفارُ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- إذ لا يصحُّ عندي أن يكون عن ذنب،لأنَّ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- حجُّة الله تعالى على عباده، قال الله تعالى: **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء:١٦٥].

فكيف يصحُّ النقص في حجّة الله تعالى والحجّة بحسب المحتجِّ بها والرسول على قدر مرسلهُ، كان رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّه ليُغانُ عَلَى قَلْبي فأَسْتَغْفِرُ الله تَعَالى فِي اليَومِ وَاللَيلةِ سَبْعِينَ مرَّةً**[2]**»**.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/٢٠٥)، وذكره ابن كثير (٢/٣٠٩)، والقرطبي (٨/٨٤) بنحوه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/٢١١)

وقد يكون الاستغفار أكثر من ذلك وإنما السبعون جاريةٌ في كلام العرب كثير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٨٠].

وهذا لا يقتضي الوقوف على السبعين؛ إذ لو استغفر لهم أكثر من السبعين لم تقع المغفرة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة: ٣٢].

فلم يقتصر رسول الله ﷺ على ذكر السبعين إلا لهذا المعنى، وهو يستغفر على الدوام ﷺ.

واختلف العلماء في استغفاره ﷺ فمن قائل كان يرقى مقاماً بعد مقامٍ فيستغفر من الأوَّل، وذلك عندهم مستحسن بخلاف غيره، ولم أجده عندي كذلك؛ إذ لم يكن استغفاره عن أمّته، وكان استغفاره خصيصاً بنفسه، فإنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ مقامٍ على أكمل الأحوال بالأخذ عن ربه، فلا ينطق عن الهوى

﴿**إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٤].

فكان في المقامات بالله تعالى لا بنفسه، وكيف يصحُّ أن يكون مقامٌ ناقصاً إلى ما هو أعلى منه في مثل هذا الحال إذا كان مشاهداً لفيض الإلهية ومحل الربوبية؟ فإن كان ارتقاء الرُّتب المعنوية لا يصحُّ فيه الصعود والهبوط وإنما ذلك بحسب الشخص، ويصحُّ العلوّ والنزول في التابع، فإنَّ المتبوعَ مشرعٌ له ومتنزلٌ من علوِّ مرتبته إلى أدنى رتب التابعين، كالقارئ للقرآن الحافظ له المعلم للأطفال فإنه مع حفظه للقرآن يبتدئ مع المبتدئ في القراءة وينزل إلى رتبته.

وقد توضأ رسول الله ﷺ مرّةً مرّةً وقال: «**هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به**»[1]، و«**توضأ مرّتين مرّتين**»[2] وقال فيهما ما قال من الأجر مرتين، و«**توضأ ثلاثًا ثلاثًا**»[3]. وقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٥١).
(٢) رواه البخاري (١/٧٠).
(٣) رواه البخاري (١/٧٠).

فمن قال: إنَّ رسول الله ﷺ حين توضّأ مرة واحدة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين مرتين.

وقال في الثالثة: **«هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي[1]»**.

فمن قال في حقه ﷺ أنَّه كان في الثالثة: أكمل منه في الأولى:، وأنَّ الأولى: ناقصة بالنسبة إلى الثالثة: فقد كفر؛ لأنَّه ﷺ إنَّما تنزَّل من الثلاثة إلى الواحدة للتعليم، وقد تنزَّل معلم القرآن إلى مراتب الصبيان للتعليم، فيقرأ أوَّل سورة للقرآن وهو حافظ لجميعه فلا يكون ذلك للنقص بل للكمال، وذلك من أعلى مقامات الكمال ولم يكن فيه نقصٌ بالنّسبة إليه فإنَّه ﷺ كان يتنزَّل للتعليم ويتكلم للتفهيم.

والذي أراه من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ زمن فرداً مترقياً لقوله تعالى: **﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾** [طه: ١١٤]، والحديث: **«لا بُورِكَ لي في صبيحةِ يومٍ لا أزدادُ فيه علماً[2]»**.

فلما ترقَّي إلى مقامٍ شهد فيه من فضل الله تعالى عليه ما يعجز البشر عن القيام بحقِّ الله تعالى فيه وشكرٍ لنِعَمِه عليه لقوله تعالى: **﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾** [النساء: ١١٣].

وقوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾** [الأنعام: ٩١].

فكان ﷺ يرى نفسه مقصراً مع كماله، ومن كماله أن يرى نفسه مقصراً عن أداء ما يجب لله ﷻ عليه في ذلك، فيستغفر الله تعالى ذلك الاستغفار في اليوم والليلة ﷺ.

## التّوبة في حقِّ العموم

**وأما** التّوبة في حقِّ العموم فلا تصحُّ إلا بالانخلاع عن جميع الذنوب،كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها أولها وآخرها.

وشروطها الظاهرة وهو الانخلاع عن الذنب أولاً قولاً وفعلاً ظاهرًا وباطنًا، والندم الملازم للقلب ثانياً حتى يحرق نيرانُ الخوف كبدَهم، ويظهر ذلك على جوارحهم من البكاء والنحول والذبول والأسف واللهف وقطع علائق القلب بالمنى، وبالعزم الجازم ألاّ

(١) رواه أحمد في المسند (٢/٩٨).

(٢) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢/٥٥٣)، والطبراني في الأوسط (٦/٣٦٧).

يعود أبداً حتى يذهل ذلك العزم عقله، ويقطع نياط قلبه الخجلُ مما وقع فيه واطِّلاع الله تعالى عليه، ويجد لذلك ذوقاً ويظهر أثر ذلك عليه، فهذه توبةُ العامة، وأمَّا توبةُ الخاصَّة فهو نوع مما ذكرناه أولاً من الاستغفار المذكور.

## التوبة النصوح[1]

وأمَّا التوبة النصوح فإنَّها أخصُّ من ذلك، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾ [التحريم:٨].

وهي تكفر السيئات وتبدّلها بالحسنات، وهي تغيِّب التائب عن الخواطر التي تحصل في نفس المتردد، فلا يصحُّ مع التردد إلا حظُّ جواز الوقوع في الذنب في حالة التوبة، والتوبة النصوح تغيِّبه عن ذلك كله.

وأعرف فقيراً وجد ذلك، وذلك أنه حين وقع في الذنب كان كالغائب عمَّا وقع فيه، فأذهله ذلك وطاش عقله وسُلِبَ لُبَّهُ، وفزع إلى الله تعالى فزعةً استخرجت من قلبه الذنب وأنسته الوقوع فيه حتى رجع إلى الله تعالى بالأُنس به، فإنَّ الخوف إذا اشتدَّ استوحش الخائف، كالقدوم على الملك مع الخوف منه.

ولذلك لما دخل الجنيد على السّريِّ -رضي الله عنهما-[2] فوجد عنده فكر، فقال: ما بالك يا أستاذ؟ فقال: دخل علي شاب آنفًا فقال ما التوبة؟ فقلت: ألاّ

---

(١)قال الشيخ ابن سبعين-قدس سره- التوبة: هي الرجوع لغةً، وهي الندم على المعصية وتركها، والعزم على عدم الرجوع إليها شرعًا، ونقول: التوبة: هي رجوع التائب عن المعصية بأمر آمر يحكمه إلى رجوعه، ويخوفه ويرغبه، ويترك ما هو عليه؛ لأجل ما نهي عنه، ولأجل ما هو ترك له، ويرجع إلى ما أمر به، وهذا القسم ذكره سيدنا ﷺ في: «الرضوانية»، ونقول: التوبة: هي غسل الإشابة الواقعة في المحل الظاهر، ونقول: التوبة: هي انصراف العبد إلى ربه، ورجوعه إليه بالقوى الجسمانية والروحانية منه، ومشيه على القانون الشرعي صحبة العلم والعمل.

ونقول: التوبة: هي خروج العبد من اختياره وصفاته القائمة به، وأخذه اختيار الشرع وتصرفه به، وتوسط أقواله وأفعاله، وجملته بين الأمر والنهي، ونقول: التوبة: هي الخروج عن الهوية العرضية، والأخلاق السيئة، والدخول في الآنية الذاتية، والتجوهر بالأسماء الرحمانية. وانظر: رسائل ابن سبعين (١٧٠)، .

(٢) انظر في ترجمة ومعرفة مناقب وأخبار كلا من سيدنا الجنيد وخاله سيدنا السري، كتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين –طبع العلمية بيروت- وكتاب روضة الحبور لابن الأطعاني- ، طبع دارة الكرز –مصر.

تنسى ذنبك، فردَّ علي وقال لي: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقال الجنيد: الصواب ما قال الشاب[1].

فإن ذِكر الجفا مع الصفا جفا، وكلُّ واحد منهما قال الحقَّ غير أنَّهما متفاوتين في درجات التائبين، فإنَّ الذي يكون في رتبة العوام إذا زايله الخوف رجعت نفسه إلى عادتها وارتكبت المحارم، فإذا كان الذنب بين عينيه والخوف ملازم لقلبه وهو يشاهد ما يواعده الله عليه، هربت نفسه من الذنوب.

وليس كذلك من كان له أُنس مع الله تعالى، وترقَّى في درجات الكمال وشهود صفات الجمال، فإنَّه متى اشتدَّ خوفه قطعه عن السير إلى الله تعالى ثم ردَّ المظالم إلى أهلها من مال وعرض ويحاسب نفسه قبل الحساب ويتخلص من غرمائه قبل يوم المآب، فإنَّ ساعة توبته هي ساعة عرضه على الله تعالى، فلا يترك ذرةً إلا ويتخلص منها، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولقد كان نجم الدين بن القرطبي والياً ببلاد قوص، فلمَّا تجرَّد وتاب إلى الله تعالى جعل في عنقه سَلبة، وقاد نفسه إلى غرمائه في البلاد والأسواق وتخلَّص من غرمائه وحللوه.

وبلغني أنَّ أحد الصالحين كانت عنده إبرة فمشى إلى بلادٍ بعيدةٍ حتى ردَّها إلى مالكها.. فهذه وأمثالها سيَّان، وليس المراد استقصاء هذا الفصل في التوبة إذ الوقت يضيق بخفايا النفوس الباطنة، وما يجب على كلِّ تائب بحسب حاله ومقامه وطوره وأفقه، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان قصده وجه الله تعالى.

## الإيمان بالكرامة واجب[2]

وأمَّا الإيمان بكرامات هذه الطائفة فهو إيمانٌ بالغيب وهو واجب؛ لأنَّ الإيمان بالرُّسل وبما جاءوا به واجب، وقد جاءت الرُّسل بما وراء العقول، وقد أثنى الله تعالى

(١) انظر: كتابنا في الجنيد (ص٨).

(٢) للاستفاضة في مسألة كرامات الأولياء وما يتعلق بها، انظر كتابنا: «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال».

على المؤمنين بالغيب فقال تعالى: ﴿**ألم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١-٥].

فانظر إلى هذا الوصف الذي وصفهم الله تعالى به، والحديث في الشاة التي وجدت مع الذئب فانْتُزِعَتْ منه فقال الذئب: مَنْ لها يوم السَّبُعِ؟ يومَ لا راعي لها غيري، فقالوا: لا إله إلا الله، ذئب يتكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بذلك وآمن به أبو بكر وعمر، فأخبر عنهما بالإيمان بذلك ولم يكونا حَاضِرَيْن(١).

ووجه الاستشهاد أنَّ رسول الله ﷺ قال آمنت بذلك، وهو أمر مغيبٌ جرى في زمن بني إسرائيل.

وحديث السيدة خديجة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ وكونها فُضِّلَتْ على غيرها بإيمانها بالغيب، وهو أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها فوجدها تبكي فقال: «لها ما يبكيك»؟ قالت: يا رسول الله، إني افتكرت القاسم فدرّت ثدياي، فبكيت كوني لم أكمل رضاعه، فلو أكملت رضاعه لكان أخفُّ وأهون عليَّ، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنَّ له لمرضعات في الجنة»، فقالت له: لو علمت أو تحققت لهان عليَّ -أو كلمة هذا معناها- فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن أُسْمِعَكِ صوته في الجنة؟» قالت: لا، وآمنت بالله ورسوله(٢).

فانظر إلى هذا الإيمان الصحيح، كيف استوى عندها الغيب والشهادة بالحسِّ بل قدَّمت الإيمان بالغيب على الشهادة بالحسِّ، لا جرم أنَّ الله تعالى سلَّم عليها لقوله ﷺ: يا خديجة هذا جبريل يُقرؤُك عن ربِّك السلام، ويبشِّرك ببيت في الجنة من قصب،

---

(١) رواه البخاري (٣/٨١٨)، وأحمد (٢/٣٨٢)، وابن حبان في الصحيح (١٤/٤٠٥)، بنحوه.
قلت: وفيه دلالة على أن المنكرين لذلك من أهل الزَّيغ والضلال؛ لعدم إيمانهم بما آمن به عليه السلام وأبو بكر وعمر؛ لأن الإنكار مع صحة الحديث إما ردٌّ وإما تكذيبٌ، وناهيك بها زلة في المهالك، والله تعالى هو العاصم من ذلك.

(٢) رواه مسلم (٤/١٨٠٨)، وابن ماجه (١/٤٨٤)، .

لا صخب فيه ولا نصب.

ولأنَّ الشرائع تأتي بما وراء العقول، والوحيُ يأتي بالغيبيّات، وكذلك قِسَمِ الميراث وعدد ركعات الصلوات والطواف بالبيت وتقبيل الحجر الأسود وإخبار النبي ﷺ بالنساء الكاسيات العاريات من ذلك الزمان، وكذلك عمّا وقع في طول مدة الحياة، وما بعد الممات، وما يؤول إليه الحال والاستقرار في النيران والجنان، وما نطق به القرآن العظيم من أنواع المحاسبات والجزاء على الحسنات والسيئات من النعيم واللذات أو الجحيم والعقوبات، وهذا كلُّه غيبٌ يجب الإيمان به والدخول تحت حكمه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وللوليِّ حصته من ميراث رسول الله ﷺ على قدر تبعيِّته ونصيبه وقسمته من الأقوال والأفعال والتجليات والأحوال والوجدان والعرفان إذ العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يصحُّ ميراثُ الأنبياء من الأموال فإنه ﷺ قال: **«نَحْنُ مَعَاشِرُ الأَنْبِياء لا نُوَرَّثُ، مَا تركْنَاهُ صدقة**[1]**»** فلزم أن يكون الميراث فيما تقدَّم ذكره من أقواله وأفعاله وأحواله ومكاشفاته وتجلياته ووجدانه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

فحيث وُجِدت الخشيةُ أُطْلِق هذا الاسم وإلا فلا، ولذلك استحق هذا الاسم أهلُ العلم بالله تعالى لوجود الخشية فيهم، وعدمها من غيرهم ممن يَقْصِدُ التَّقدمَ على الأقران والارتفاعَ في المجالس والتكالبَ على الدنيا وأخذَ الخطام من غير وجهه والمنازعةَ لغيره في المناصب الدنيوية والمخاصمةَ على العلوِّ في المجالس وترويجَ الكلام على من يقول الحقَّ في جواب المسألة، خشيةَ أنْ يتقدّم عليه، فهذا كلُّه يزيل الخشيَة، بل العلم ضد ذلك كلِّه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص:٨٣].

ونحن نسأل الله العظيم التوبة مِن ذلك، فإنَّا والله لا نُريد الفساد في الأرض ولا نريد الإهانة فيها فإنْ كان ذلك هو العلوَّ فقد خسرنا، ونسأل الله تعالى الإقالة بمنِّه

(١) رواه البخاري (٤/١٤٨٠)، ومسلم (٣/١٣٨٠).

وكَرمه، وفيما وصف الله تعالى المؤمنين بالغيب وأخبر عنه نبيُّه ﷺ كفاية لمن كان له قلب.

## الجَنين والأسَـد

وقد أخبرني السّيد الشريف عبد العزيز المنوفي- رحمه الله تعالى-[1] قال: كان فقيرٌ -ولم يسمّه- خرج قاصدًا إلى الشام ومعه زوجتُه وهي حامل ومعه حمار عليه حوائجهم فخرج عليهم الأسد فقال لزوجه: إنْ تقدّم أحدُنا أخذه الأسد -أو افترسه أو أكله أو كلمة هذا معناها-، وإنْ قدّمنا الحمار فهو رفيقنا وننقطع عنه، وكان قد جاء قطّاع الطريق من خلفهم ولم يجدوا لهم مُخلّصًا، وإذا بصرخةٍ وقعت فولّى الأسد هاربًا، وولّى قطّاع الطريق هاربين، ثم توجه الفقير، ومات بعد ذلك.

وولدت زوجته ولدًا ذكرًا، وصار فقيرًا، وبقي بعد ثلاثين سنة، فسافر هو ووالدته، فلمّا وصلوا إلى المكان الذي كان الأسد والقطّاع خرجوا على أبيه فيه، وكانت هناك شجرة بَقِي أصلها، فقال لوالدته: تَعْرفي ما اتفق لك ولوالدي هاهنا؟ فقالت: لا، فقال: تذكري فتذكّرتْ، فقالت: كنتُ حاملاً بك وكان معنا حمار، فخرج علينا الأسد والقطاع، وبقينا في شدة وإذا بصرخة عظيمة فولّى الأسد هاربًا والقطاع هاربين، فقال لها: تعرفي مَن الذي صرخ؟ قالت: لا، قال لها: والله أنا الذي صرخت في بطنك.

ومثل ذلك كثير، وإنَّما نذكرها فِي موضعها إنْ شاء الله تعالى.

## أعاجيب الزّمان

ومِمَّا حُكِي عن شيخ الشيوخ ابن مسكين ببغداد، كان خادمه أخذ سجَّاداتِ الفقراء وخرج يوم الجمعة ليفرشها لهم، فنزلَ ليتطهرَ في الشط فطلع بمصر فمشى فوجد رجلاً صبَّاغًا وكان يدري صناعة الصباغة، فاستعمله فيها مدّة وزوّجه بابنتِه وقام معها سبع سنين، وولد منها أولادًا ثم نزل في يوم جمعة ليغتسل في بحر النيل فطلع ببغداد.

---

(١) قال الصفدي: هو عبد العزيز بن عبد الغني بن أبي الأفراح سرور بن أبي الرجاء سلامة بن أبي اليمن بركات بن أبي الحمد داود ويتصل بالحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الينبعي المجيد الإسكندري المولد . أخبرني العلامة أثير الدين أبو حيان قال : مولده سنة سبع وستمائة. وانظر: الوافي في الوفيات (١/٢٦٨٧).

ووجدَ السجَّادات على المكان الذي تركهم فيه، فأخذها وفرشها لهم وصلُّوا صلاةَ الجمعة فقال له الشيخ: أبطأت في هذه المرة فقال له: يا سيدي جرى لي كذا وكذا، وقصَّ عليه القصة، فقال له الشيخ: هل كنت تفكرت في شيء أو أنكرت شيئًا؟ قال: تفكرت في قوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤].

فقال له: يا ولدي، إن الله تعالى يبسط الزمان في حقِّ قوم ويقبضه في حق قومٍ آخرين، وقد أراك الله تعالى ذلك، ثم أرسل الشيخُ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد.. فهذا وأمثاله جائزٌ ولا يمتنع على الله تعالى شيء من ذلك كله.

وهذه الحكاية وأمثالها وإنْ كانت غريبَة في خَرقِ العوائدِ وإدخالِ الواسعَ في الضيّقِ، فلا يمتنع على قدرة الله تعالى وقوعُها، وأمثال أمثال أمثالها إلى ما لا نهاية له.

وذلك لأنَّ القدرةَ لا يَمتنع عليها شيء، والشيئيّة والقدرة لا حجر عليهما، ويجب الإيمان بذلك كلِّه، وله مثالٌ ظاهِر:

فإنَّك إذا أردتَ أنْ تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفًا حرفًا، وقرأتَه على هذه الهيئة عرفْتَ قدرَ الوقت الذي قرأت فيه، فإذا سنحَ لكَ في خاطرِك كان كاللَّمحةِ الواحدةِ بالنسبة إلى ذلك الوقت، حتى حُكِيَ أنَّ شخصًا قرأ سبعين ألفَ ختمةٍ في اليوم الواحدِ، وحكايته مشهورة بالسَنَدِ بمكةَ، شرّفها الله تعالى، وهي عن الثقاة الصالحين، وتركتُ الكلام فيها لما نحن بصدده.

وكذلك إذا أردت أنْ تكتبَ الختمةَ -أعني القرآن جميعه- فأدنى ما تقدر عليه أن تكتبها في ستةِ أيامٍ أو سبعةٍ مع السرعةِ، فإنْ نقشْتَ الختمةَ في طابعٍ وطبعتَ به على ورقةٍ واحدةٍ أو غير ذلك مِن القَابِلِ فإنَّها تُرسَمُ في لَمْحِ البَصرِ، فهذا وأمثالُه كثيرٌ.

وضربُ الْمِثالِ في إدخالِ الواسعِ في الضيِّقِ، وكالقدح من الخردل، إذا نثرتَه في الأرضِ يحتاجُ إلى أرضٍ واسعةٍ، فإذا جمعتُه اجتمعَ في القَدحِ.

وكذلك السِنَةُ من المنام، يرى النائمُ فيها مِن البلادِ البعيدةِ والأقطارِ والرِّحابِ الواسعةِ من الفَيافِي والقِفَارِ، حتى أنه يرى كل ما سمعته أذنُه مِن جبل **(ق)** وغيره مِمَّا لا يقدر على الوصول إليه في مدةِ عُمْرِه، فيبْصر ذلك في اللمحةِ الواحدةِ، وقد يتزوَّج ويتوالد في منامه، ويُقِيمُ الْمُدَدَ والسنين في اللَّمْحَةِ.

وقد يَرى الله تعالى وأنبياءَه ورسلَه وملائكتَه، وكلَّ ذلك في لَمْحَةِ بصرٍ مِن السِنَةِ في النَّومِ وهو لا يشكُّ في ذلك.

فافهم ذلك، وإيَّاك والاعتراضَ، فقد وضحَ السبيل ورُفع النصُّ حكمَ التأويلِ، ألا ترى إلى قوله تعالى في قصةِ بلقيس لَمَّا طلب السيد سليمان عليه السلام العرش:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

فانظرْ إلى قَولِ الأول :«قبل أنْ تقومَ مِن مقامِك»!.

وانظر إلى قَولِ الثاني :«قبل أنْ يرتدَّ إليك طرفُك»!.

هذا والمسافة واحدة إلى ما بين حالتي الشخصين وسرعة الوقت مع بعد المسافة، ومِن كونه هناك ومِن كَونِه صارَ هُنا.

فإنْ قيل: إرتدادُ الطرفِ لا يَقْتَضِي سعةَ الأَزْمِنةِ، والعرب تقول: هززت الحسامَ ثمَّ ابتدأتُ، فلَم تكُن (ثمَّ) هنا تقتضي قبله، والله تعالى يقول:

﴿**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

وما كان جائز لله تعالى فعلُه ولا يمتنع عليه أنْ يفعلَه يَجِبُ الإيمان به، ومَنْ لَمْ يُؤْمِن به فهو كافِر.

## الـوَرَعْ

وأمَّا الورعُ فالتوبةُ تستدعيه كما يَسْتَدْعِي الخَوفُ التوبةَ، والخوفُ المعرفةُ تَسْتَدْعِيه، فالأَسدُ لا يخافُه مَنْ لا يَعرفُه، والحديث: «**أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خشية**[1]».

فمَن عرفَ خافَ، ومن خافَ تابَ، ومن تابَ أنابَ، ومن أنابَ توَّرعَ، ومَن توَّرعَ تزهدَ، ومَن تزهّدَ توَّكلَ، ومَنْ توَّكلَ صبرَ، ومَن صبرَ رَضِيَ، ومَن رَضِيَ شَكر، ومن

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (٢٩٤/١)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢٣١/١).

شكر رجَا، ومن رَجَا أحبَّ، ومَن أَحبَّ قرُب، ومن قرُب استُهلِك، ومن استُهلِك فَنِيَ، ومَن فَنِيَ مُحِي، ومن مُحي أُثبْتَ، ومن أُثبِتَ رجَعَ، ومن رَجعَ من عند الله أَخْبَرَ عن الله بالله.

فبه يرى وبه يسمع وبه ينطق وبه يقوم ويقعد، كما ورد في الحديث فيكون محلاً لموارِدِ الإرادةِ، وصدور الأفعال في الأمر والنهي قائمًا بالأمر شاهدًا للإرادة ملازمًا للحكمِ ناظرًا للحِكْمةِ في، أَمرِ الإرادِة وإرادةِ الأمر، بحسبِ أُفْقِهِ وطَوْرِهِ وقُوّتِهِ واستعدادِهِ ومَا أَعْطَاه من نشأته وخلقه.

﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾[طه: ٥٠].

ومِمَّا سَمِعْته عمَّن أخبر أنه بجامع بغداد وقد أُغلقت الأبوابُ وإذا بالشيخ على رأْسِه سلّة فأرخى الْمِصْبَاحَ وأخرجَ كراريسَ يقرأُ فيها وإذا بفأر قد قرب من الفتيلة قال له ارجع فرجع وعاد، وربما كرر العَودُ فقال له الشيخ: أوَ بغيرِ إذني يا فاسق وأنا مصدرُ الأُمور، مني تبدو وعليّ تَنْزل، إذنْ فاحرقْ نفسك فدنا فوضع خرْطومَه في السِراجِ فحرقَ نفسه إلى أنْ ذهبتْ نفسُه.

ومِنهم مَنْ كَمُلَ في نفسِهِ ولَمْ يَكْمُل لتَكْمِيلِ غيرِه، ومِنهم مَن سلك على طريقِ نبيٍّ من الأنبياء، وعلى قلب ولي من الأولياء، ويكون ذلك حدَّه ومقامَه لا يتعدّاه، ومنهم الموسوي والعيسوي والسليماني والإبراهيمي، وغير ذلك من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنهم مَنْ سلكَ على طريقِ السيد آدم عليه السلام، وأعْرف فقيرًا وجد ذلك، وعلى طريق السيد يحيى بن زكريا، وأعرفُ فقيرًا سلك ذلك وخُوطِب باسم السيد يحيى عليه السلام.

وقيل له: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾[مريم: ١٢].

## مقام الكمال

ومنهم **المحمديّ** وهو نهايةُ الطريقِ، وهي درجةُ الكمالِ ومقامُ الفحولِ من الرجالِ لا بَعْدَه مَقامٌ يُطْلَبُ ولا مَحِلٌ يُرْهَبُ، ومِن هذه المقاماتِ تَظْهرُ آثارٌ لا يدركُها إلاّ مَن عرفَ حقيقةَ هذه الطريق، فمِن ذلك ما يَجِدُه بعضُ السالكين على طريقِ الأنْبياء عليهم السلام عند موتهم فيذْكُرون الأنبياء الذين سلكوا على طريقِهم فيذكر بعضهم السيد عيسى عليه السلام، وبعضهم يذكر السيد موسى بن عمران عليه السلام فيزعم مَن

لا عِلم له بهذه الطريقِ أنَّه تنصَّر أو تهوَّد وليس كذلك وإنما هو الطريق الذي سلَك عليه فأقرَّ به عِند خُروج رُوحه وانتهاء عِلْمه فيموت عليه ويبعث على ما مات عليه.

لَكِنَّه وإنْ سَلَك به في طريق ذلك النبيّ فهُو مِن المقامِ المحمدي إذ الطرق كلُّها مجمّعة في طريقِه والمقامات كلُّها في مقامه، والكلامُ كله في كلامه ﷺ ألا تراه ﷺ كيف قال؟: «**أوتيت جوامع الكلم**[1]».

**فانظر** كيف نسخ الله تعالى بشريعته الشرائع؟ وكلّ الشرائعِ وما أتت به منزه وجُعلَت له الأرض مسجدًا وطهورًا.

وكيف كان السيد آدم عليه السلام أبو البشر مظهرَ الأجسَامِ ويَعْسُوبُ[2] الأشباحِ، وكان هو ﷺ مظهرَ الكونِ ويَعْسُوبُ الأرواحِ وَكَيفَ أَتَى آخر الرسلِ وهُو المقَدَّم في المعِنى والفَضْلِ، وكيف ختم الله تعالى به الرُسَل؟! وأَكْمَلَ به الدينَ ولو بَقِي حاجُة لتكميلِ الدينِ لَمَا خَتَمَ به، ولو بَقِي نوْع مِن الإرشاد والهداية وتيسير الطريق وإقامِة الحُجَّةِ لَمَا كان خاتمًا.

ألا ترى قوله تعالى؟: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

وكيف قال: ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣]. ولم يرضَ إلاّ ما كان خيرًا.

ولأنّ كلَّ نبيّ كانت رسالتُه على قَدرِ أُمتهِ في الهداية والتبيين، وكيف كان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل؟، وكيف افترَقُوا في المذاهبِ وآثارِ الصفاتِ؟كافتراق الأنبياء المتقدمين في الإرسال فيكون هذا يأمر أمته بأمرٍ، وهذا يأمر أمته بأمرٍ آخرٍ والمرسلُ واحٌد، والجميع على الحقِّ، والآخذون عن الله تعالى مِن الأولياء كلِّهم على الحق، وإن وقع الاختلاف بحسب نصيبهم مِن آثار الصفات؛ إذ طريقُ الرجاء غيرُ طريق الخوف.

والكمال الاعتدال في الجَمْعِ بينهما ولنذكر مِن كلِّ مقامٍ نبذَة يسيرَة، وإشارَة

---

(١) رواه البخاري (٣/١٨٧)، ومسلم (١/٣٧١)، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٠).

(٢) اليعسوب ذّكر النحل، والمراد بأنها صدرت عنه كما تصدر سلالة النحل من الذكر.

لطيفَة مِمَّا قدَّمنا ذكرَه ليجدَّ السالكُ السبيلَ إلى سلوكِ طريقِ مَن تَقدّمَ مِمَّن سَمّيتُه له مِن فَقْدِ أَزْمَانِنا، وما كانوا عليه.

لأنَّ ذكر مَن تقدَّم من الأولياء والأكابرِ وصفاتِهم، وذِكْرِهِم- نفع الله تعالى بهم- وما سنُّوه وبينُوه، ومواجيدِهم وما كانوا عليه قد يرى السالكُ نفسَه عاجزَة عنه فيكون ذلك سببًا لتأخيرِه عن المسيرِ، فإذا ذكرْنا له أهلَ زمانِهِ لعلَّه يجدُ الحجةَ وإقامةَ الدليلِ على نفسِهِ مِمَّن هو في عصرِه وزمانِه، ويتشبَّه إن لم يتَّصف، ويتواجَد إنْ لم يَجِدْ، ويتباكى إن لم يبكِ، ولا يجد لنفسه عذرًا فيمن سبقه.

وكيف ورد الحديث: **« واشوقاه إلى إخواني! قيل يا رسول الله: أليس نحن إخوانُك؟ قال: أنتم أصحابي، إخواني الذين يأتون بعد، أجر العامل منهم بخمسين منكم، وقيل بسبعين، فقالوا: منهم؟ فقال: بل مِنكم فإنَّكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدون على الخير أعوانًا**[1]**»**، وبيَّن العلّة.

وفضلُ الصحابةِ على غيرِهم محققٌ معلومٌ، وذِكْرُ الْمُدِّ والنَّصيفِ وأحوال الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، وذِكْرُ صفاتِهم وجلالِتِهم وفضلِهم لا يسعه هذا الكتاب، ومقصودُنا التحريضَ والتشويقَ إلى جنابِ الله تعالى، والحديث:

**«أمتي كالمطر لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه** [2]**»**.

وحديثُ المهديِّ أليس هو كائن وصفاتُه مشهورةٌ؟ فما بالُنا عَن النّهوض عاجزون؟ وعن السعادةِ متأخرون؟ ﴿**ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ**﴾[الحج آية: ١١].

وتطلبُ مَع ذلك مراتب الكَمالِ ومَنازِل الأبْطالِ وفُحول الرجالِ، وتَطْمَعُ بالمنازلاتِ والأحوالِ مع سوءِ الأَحْوالِ، ما هذا ظنٌّ عاقلٍ.

فَمَنْ رَامَ وَصْلاً يَبْذُلُ الرُّوحَ دُونَه ... مُطِيعًا لأَنَّ الحبَّ مَسْلَكُهُ وَعْرُ

ويَنْظُرُ أخذَ الرُّوحَ مِنهُ تَصَدُّقًا ... عَلَيه وإلاّ حظُّه الصَدُّ والْهَجْرُ

فاستَيقِظْ يا نائم، واقعدْ يا راقد، وانهضْ يا قاعِد، وسرْ يا واقف، وسارعْ يا

(١) رواه مسلم (٢١٨/١)، وابن حبان (٢٢٤/١٦)، وابن خزيمة (٦/١).
(٢) رواه الشهاب القضاعي في مسنده (٢٧٦/٢).

سائر، وسابقْ يا مسارع، وانظر إلى قول ربِّك ﷻ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠-١١] فإنْ لمْ تَقْدِر على المسابَقةِ فلا تتأخرْ عن المسارعةِ، فإنْ فاتتك القُرْبَةُ لم تَفُتْكَ المغفرةُ والجنة والرحمة.

ولفظُ الحديثِ: «**تعرّضُوا لِنَفَحاتِ الله تعالى وإنَّ لله تعالى نفحات فتعرّضوا لها**[1]».

ولا تنزلْ بمنزلةِ البهائمِ، يأكلون ولا يعقلون، وينامون ولا يعملون ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾، ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [البقرة: ١٨].

فيا ليتَ شِعري ما الذي تعوّضهُ من ذلك؟

ولقد كتبتُ لأحد الإخوانِ ورقَّة فيها: «**أيُّها الأخُ، كلُّ نَفَسٍ فاتَك من الله تعالى فَهو عليك خُسْرانٌ، وإنْ عوِّضْتَ به ألفُ جنةٍ؛ فإنَّ في الله تعالى عِوضًا عن كلِّ شيءٍ، ولَيس في شيءٍ عِوضًا عن الله تعالى**».

وفي هذا الكلامِ غُنية عن غيرِه.. وقد قلت فيه شعرًا:

إذا لم تَكُنْ تَجْرِي عَليكَ الْمَدَامِعُ ... وأُفْنِي بِها عُمرِي فَعُمرِي ضَائعُ

لَقَد غَلَّقْتَ أَبوابَ كلِ مُؤمِلٍ ... وانقَطَعَتْ إلاّ لَديكَ الْمَطَامِعُ

وبابُكَ مَفْتُوحٌ بِه كُلُّ قاصدٍ ... ولَيس عَليه دُونَ فَضْلِكَ مَانِعُ

وقَدْ ضَيَّع الوُدَّاعُ كلَّ وَدِيعةٍ ... لَديهم ومَاخَابتْ لَديكَ الودائعُ

وهَا أَنا مَطْرُوحٌ ببابِك واقِف ... إلى نَظْرةٍ مِني بطيفِك قانعُ

غَرِقْتُ بِبَحرِ الجُودِ مَا لي سوى ... الرضَا لَديكَ وَأنْ أَبْقَى بِعزِّك خاضعُ

## معرفةُ الله تعالى

وأمَّا معرفةُ الله تعالى فإنَّها واجبَة على كلِ مَن عَقل عَن الله تعالى مِن إنسٍ وجنٍ

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/٢٥١)، وابن أبي شيبة (٧/١١١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٦٢).